الحـاوي[1] ومـا يحويـه

أيْ بُنَيّ !

عندما تسمع كلمة الحاوي لا تفرح، وتظنّ أنّ المقصود الدّجّال، الذي يضحك على النّاس بخفّة يده، وخـداعه للمشاهدين، فهذا شيء يعجبك، لأنّ فيه لهوا، واللّهو أحبّ إليك من الجدّ، لأن الجدّ فيه تفكير، والتّفكير عناء، وأنت لا تحبّ العناء. والتّفكير يحتاج إلى هدوء، وأنت لا تستطيع أن تبقى هادئا مدّة طويلة، وهذا فيه بعض العذر لك ولمن هو في سنك، لأنّ الله سبحانه وتعالى وضع فيكم النّشاط في هذه السنّ، ليساعدكم على النّمو، الذي تأتي به الحـركـة. وكـأنّي بك تقـول ما دام الأمـر كذلك، فلا تطلبوا منّا ما ليس في طبيعتنا، واصبروا علينا حتى نبدأ نهدأ، أيّ بعد أن يكتمل نموّنا، وقد نوافقكم يا بُنَيّ على هذا، ولكن نقول لكم لابدّ أن

(١) «فائدة سانحة» للطّبيب الرّازي كتاب اسمه الحاوي.

ننبّهكم من الآن حتى إذا جاء الوقت لم يكن الأمر عليكم جديدا.

وأنـا أحب منك النّقاش، يا بُنَيّ، لأنّ النّقاش أبواب تفتح بين «سراديب» النّفوس المغلقة، تعرف ما عندي، وأعرف ما عندك، وهذا أدعى للتّفاهم، لأنّ احتكاك الآراء، وتقابل الأفكار هو لقاح لها، ومجيء الثّمرة لا يأتي إلا بالإلقاح، وكذلك السّحابة لا يهطل مطرهـا إلا إذا ألـقحت بما يهيّء لها هذا الإمطار. أما حجب ما عندي من أسباب، وفرض النّتائج عليك، أو قبولك لهذا وفي نفسك منه شيء، فهـذا هو مدخـل الخلل على التّنفيـذ، لأنّك تقوم بخطوات ما أمرت به بدون إيمان، وهذا أدعى ألاّ تعتني به، وألاّ تتقنـه، وألاّ تعـطيه من روحك ما يضمن نجاحه. وهو أيضاً مدعاة لأن يهزّ ثقتك بي، وبأسلوبي، وليس أسوأ من الثّقة إذا اهتزّت. وهو أيضاً مدعاة لأن تظنّ أنّ رأيك المخبّأ أفضل، بحكم منك، ولو عرضته لتبيّن لك من الخلل فيه ما لم يخطر على بالك.

ولكن للنّقاش، يا بُنَيّ، أسلوب يجب ألا يغيب عنك. قوامه الأدب في الحديث، والرقّة في تناوله، واستجلاب تجاوب المحدَّث، بدلا من تنفيره. يجب ألا يكون فيه رائحة الاستعلاء، أو الجزم إذا كنت في موقع المتعلّم، ولا الاستخفاف بموقع المحدِّث، ولا الاستهانة بما يبديه، مهما بدا لك فيه من ضعف. وضع في ذهنك أنّ كل رأي محترم، لأنّ مصدره العقل، والعقل في الرّأس، وهذا تكريم من الله له بأن جعله في قمّة جسم الانسان، ولم يضعه في قدمه. وأعلم أنّه بالنّسبة لصاحبه رأي سديد، وإذا بدالك أخرقا، فعليك بالمعالجة الحسنة له، حتّى يبدو خرقه لصاحبه، وكم من رأي كان صاحبه معتدّا به، فلمّا بُصِّر بخطله بتؤدة ورويّة، وصبر وتحمّل، رجع عنه، وقد يخجل منه مستقبلا. ولا تنسى، يا بُنَيّ، أنّ كثيرا من خيرة الصّحابة قبل أن يسلموا كانوا يرون غير ما يرى الرّسول ﷺ، ولكنّهم غيّروا رأيهم بعد أن تدبّروا الحجج والبراهين، التي بُسطت لهم بالحسنى.

بعض المجادلين في شرقنا، يا بُنَيّ، لا يعرفون أصول الجدل، وقبل أن يكمّل المتحدّث حديثه، يقولون له: «أنت غلطان» أو «رأيك هذا سخيف» وهذا يجعل المجادل تأخذه العزّة بالأثم، فيقفل عقله مثلهم، ويلجأ إلى العاطفة، وما يمكن أن تمدّه به من كلمات سبّ وجرح، ويتجنب الجميع الطّريق الممهّد، ويسلكون الطريق الوعر، الذي لا يوصل إلاّ إلى الخطل والخلل. راقب الطّريقة التي يتكلّم بها الأوربيون، ولا بأس من أخذ ما نفعهم من طيّب أفعالهم. يتكلّم أحدهم بهدوء، وبكلمات منتقاة، ومعان محدّدة، فيشرح رأيه كما يؤمن به، ولا يقاطعه أحد. ثم يبدي الآخر وجهة نظره، وقد يكون أحدهما مشرّقا في رأيه والآخر مغرّبا، ولا تظنّ أنّهما يمكن أن يلتقيا، لبعد الهوّة بينهما.

ولكنّهما لا يفتآن يقتربان، نتيجة الحكمة في الجدل، لا يقول أحدهما للآخر: «إنّك مجنون إذْ تقول هذا» ولا «أمّا هذا الرأي فأسخف ما سمعت» حتى لو كان صادقا في شعوره هذا، ولكي يقوم

باحترام شعور الآخر، وببراعة وإتقان يحذف الكرة على الآخر، ويصوّر الأمر مشكلة وعلى الآخر حلّها، فيقول: «إنّ ما قلته صحيح، يدلّ على هذا كذا وكذا» وقد يأتي بما يسند رأي خصمه من الحجج مما لم يأت به الأوّل. ثم يردف فيقول: «ولكنّ الذي يحيّرني هو كذا، فكيف توفّق بين هذا وما قلت، إنّني محتار، وأريدك أن تدلّني على الحلّ». أرأيت كيف شغله بالبحث عن حلّ، ووقف ينظر إلى خصمه، منشغلا لأجله، ليجد حلاّ لما حيرّه. أو يقول له: «إذا أخذنا برأيك ألا ترى أنّ هذا يوقعنا في تناقض؟» أو «كيف نوفّق بين ما قلت وبين ما هو حادث، أو ما قاله فلان؟». أو يقول: «جميع ما قلت صحيح وقويّ، ولكن يبقى كذا». ولو نظرت إلى الجزء الباقي وإذا هو أكبر مما سلّم به، ولكنّه أراد أن يكسبه، وأن يسجّل لنفسه نقطة يدخّرها عند الآخر.

المطلوب، يا بُنَيّ، أن تفكّر في كل خطوة، وأسلوب الجدل من أهمّ الخطوات، الحقائق قد

تكـون واضحـة، وقليلون أحيـانا الذين يجهلونها ولكنّ النّاس يختلفون في الأسلوب، أرأيت خياطَين يأخذان من قماش معيّن، ويتقن أحدهما عمله، ويُرضِي «زبونه»، والآخر لا يتقن ولا يرضي. ولا أظنّك تختار لنفسك أردأ الاسلوبين.

وليس هذا الجـانب في الأسلوب هو الـوحيـد عنـدهم، مما يمتـازون به في الغرب علينا، هناك جوانب عدّة: منها أيضاً أنّ أحدهم لا يفتح فمه قبل أن تكـون الفكرة واضحة في ذهنه، ولم يبق إلاّ التّعبـير عنهـا، فيختـار كلماته عنها بدقّة متناهية، وبـإيجاز متقن. وقد تعلّموا على الإيجاز، ولعلّ ما دعاهم إليه قيمة الوقت عندهم. ونحن، يا بُنَيّ، أحيـانـا نبدأ الحديث قبل أن نعرف ماذا سنتكلّم عنه، ونرجو أن يأتي الحديث بالفكرة، بدلا من أن يُعبّر الحديث عن فكرة متبلورة. وأحيانا لا نكتفي بالجملة بل نبدأ بمترادف موصوف ليس في ذهننا هو أو وصفه، فإذا أعسر علينا أخذنا نتهته أو اقتسرنا المرادف، فلا ينسجم مع الحديث.

وعنـدما قلت لك إنهم يحرصون على الايجاز، فذلـك لأنّهم يعرفون قدره، ويتقنونه، ويعلَّمون عليه في المدارس، يُعطَى أحدهم خمس صفحات من كتاب، ويقال له: «اختصرها في صفحة، أو في نصف صفحة» ويشترطون ألا يختلّ المعنى، وأن لا تهدر الأفكار الرئيسيّة. ويأتون بما هو بديع ومتقن في هذا.

ومـا دمنـا نتحـدث عن أسلوبهم في الحديث، فلعله من المفيـد لك أن تعلم أنّهم في الغـالب لا يبـدؤون في التّفـاوض والجدل باعطاء رأيهم، بل يستدرجون الآخرين إلى ما عندهم ما أمكن، حتى لا يبـدو جهلهم أمـام «قبيلهم» وهم في غنى عن ذلك. وأحيانا يكسبهم استماعهم للآخرين أرضا لم تكن لهم في الجدل. وهذا يعطيهم أيضاً فكرة عن المتحـدّث: مواقع القوّة عنده، ومواقع الضّعف، مدى معرفته بجوانب الأمر، أو جهله، والجوانب التي يتخـوّف منهـا، والجـوانب التي يدخلهـا بثقة وشجاعة. وإذا كان الفريقان متماثلين في معرفتهما

بأسس التّفاوض يختصر المبتدئ ، ويختصر مثله المعقّب، هكذا يمشون خطوة خطوة، لا يزيد أحدهما في دوره عن أقلّ المعلومات التي يمكن أن يبوح بها، أو أسلوب المحاورة الذي يسلكه.

ولست، يا بُنَيّ، في الأصل أرمي إلى الدّخول في هذا، ولكن قادني إليه الاستطراد، فلم أقاوم، لأن فيه بعض الفوائد التي قد لا تسنح مستقبلا. ومع هذا فقد تظنّ أنّي أقصد بالحاوي «اللّغة» وهي وعاء الأفكار، وهو العنوان الذي اخترته لحديثنا هذا. ورغم أنّ اللّغة تحتوي المعنى، وهي وعاؤه إلاّ أنّي لم أقصد هذا عندما وضعت العنوان، وإنّما قصدت الوعاء العادي: الصندوق في القديم مثلا، والدولاب الذي حلّ محله في الحاضر، والقدر المصنوع من النّحاس، والقدر الحديث الذي لا يصدأ، وقدر البخار الحديث. والأقلام القديمة والأقلام الحديثة، وهكذا كل وعاء من أي نوع كان يستعمل في الماضي، ويعتبر حاويا لمحتوى. سوف نتحدث عمّا يسمح الأمر بالحديث عنه. وأنت الذي

تحكم، يا بُنَيّ، ما الذي تريد اثباته، وما الذي تريد تجنّبه. وإن كنت أعلم مقدما أنّه يهمك ما فيه طرافة، وما خلفه قصص.

كانت الأوعية والأدوات في الماضي بسيطة، وأغلبها من صنع بلادنا وإتقانها يأتي بقدر الاستفادة منها، وهذا يسبق تزويقها وتزيينها، المهمّ هو فائدتها، واستجابتها لأغراض الاستعمال، هذا يساهم في انخفاض قيمتها، ولا يساهم في تطوّرها وجمالها. القّوة والوفاء بالغرض أهمّ ما يصنعه صانعها في ذهنه، وأهم ما يشترطه مشتريها. ولا تدخل الزّينة إلاّ فيما هو للزينة من حلي النّساء، أو جلاء البيت في بعض جوانب بنائه. ولهذا كان يعجب بعض أهل القرى عندما يأتي أحدهم مكّة لأولّ مرّة فيجد أنّ الحمير تحنّى، ويحلق شعرها بطريقة زخرفية[1]، يتنافس الحالقون في التّفنّن في

(١) وعجب المواطن السّعودي أكثر عندما يرى، لأوّل مرة، كلاب الغربيين تُحلق بطريقة يعتقدون أنها زخرفية، وأنها تجمّل الكلب!!

هذا، ويأتون بأشكال تلفت النّظر إلى فنّهم، وما يبذلون فيه من جهد.

وهـذا لا يعني أنّه ليس هناك من يزوّق مظهر بعض الأدوات والأوعية، ويزين حواشيها أو ينقش جوانبهـا، أو يجلبهـا من خارج البـلاد وهي بهذه الصّـورة، بل هناك من يفعل ذلك ما دام أنّه يجد موسراً يستطيع أن يقابل ثمنها. ولكنّ الأغلب هو التركيز على جوانب الاستعمال والفوائد التي تُجتنى. واحيـانـا يتـوفـر النوعان: هذا للاستعمال اليوميّ القـاسي الـدّائم، وهذا للمناسبات الفريدة ليبقى برونقه وجماله. وتأتي الحيرة والتّردّد والاحراج عندما يطلب الجـار إعارة شيء بمناسبة تستوجب ذلك، فقد يعطيه المعير طوعاً وبسرور، وقد يعطيه «قلع ضرس» وباحراج.

والاستعارة والاعارة، يا بُنَيّ، كانت على قدم وساق بين «المعارف» والجيران. لأنّ الزّمن كفيل أن يحوج الجار للجار، فقد يحتاجون إلى قِدر أكبر من

قِدرهم، أو قدر إلى قدرهم، وقد يخرب «المكوى» في وقت حرج. وقد تكون عندهم مناسبة يحتاجون فيها إلى «أباريق» الشّاهي و «فناجينه» و «أكوابه» من جيرانهم. وقد تستعار فرش، أو «حنابل» أو زرابي «زوالي». ويكون الاحراج عندما تتلف بسبب أو آخر. وقد يعوّضها المستعير، فيعترض المعير ظاهرا، وهو مغتبط داخلا، فيبدي أنّه لم يكن يريد من جاره أن يتكلّف، وأن يشتري بدلا منها عندما تلفت، وأنّها كانت شبه تالفة قبل استعارتها. وقد يعيدها المستعير تالفة، فامّا أن يسكت المعير على مضض، أو يبدي ملاحظة مريرة، يتوقّف قبولها على طبيعة المستعير في تقدير حنق جاره، أو عدم تقديره، مما قد يوصل إلى جفوة بينهما، تقطع بينهما الزّيارة، ويشمل الجفاء الرّجال والنّساء. وقد تأتي الجفوة نتيجة اعتذار الجار لجاره إذا طلب إعارته ما يرى صاحب الشيّء أنّه أثمن من أن يعار، أو ليس من النّوع الذي يعار، لأنّه من الكماليّات التي لا يستوجب العرف إعارتها.

ومن المواد التي تكمن فيها أسباب الجفوة «صيغة النّساء» «مجوهراتهن»، فالنّساء يكمن فخرهنّ في «مجوهراتهنّ». فغلاؤها، وكونها جزءً مما ساقه الرّجل، في الغالب مهراً، إلى زوجته عند زواجها، أو إرثا للمرأة من أمّها، أو هديّة من عزيز أو عزيزه، أو جمعت لها المرأة «من دم قلبها» ما اشترتها به، فهي لا تريد أن يُرى على غيرها، فيظنّ أنّها هي المستعيرة، فيما لو لبسته عند هؤلاء النّاس أنفسهم، لا المعيرة. ولا يمكن أن تقف على رؤوس الأشهاد تقول إنّ ما ألبسه هو ملكي وليس ملك فلانة التي استعارته في الحفل الفلاني. لهذا تريح نفسها وتعتذر، فلا يقف الأمر عند هذا، بل يتعدّاه إلى العتب، والمعاملة بالمثل في كل أمر سواء كان «قدرا» أو مجوهرات. وتبدأ الجفوة، وينفصل ما بين الجارتين أو القريبتين بسبب عقد منضود. وقد يعار العقد، فيسوء حظ المستعيرة بأن يكون حبله «على جريف» واهيا على وشك أن ينقطع، فلا ينقطع إلّا عندما لبسته المستعيرة، فينفرط وسط الزّحام،

وتنـداح حبيبـاتـه في أرض الله الـواسعـة، إما في الـطّريق، أو في العربة، أو في مكان الحفل، ولا يُستردّ منها إلا نصف عددها أو أقلّ من النّصف. ولك، يا بُنَيّ، أن تتصوّر الاحراج في جهة والحنق في جهة، وتتصوّر ما ينتهي إليه الأمر حسب طبائع النّاس المستعيرين والمعيرين.

والمنـظر الـذي، يا بُنَيّ، بودّك أن تراه، إذا اجتمعت المعـيرة والمستعيرة في حفل ما، وأخذت هذه تنـظر إلى عقدها، والأخرى «سارحة» تفكّر تفكيراً عميقـا في شيء، ويـدهـا تعبث بالعقـد، والأخرى تنظر، وكأنّ أصابع جارتها تعبث بأوتار قلبهـا، وهي تمسـك نفسهـا عن أن تتقدّم إليها، وتقـول يافـلانه إنّك «سارحة» وتلعبين بعقدي مما سوف يتلفـه. ولا تنتهي السّهرة إلا بعد أن تكون أعصـاب المسكينـة قد تحطّمت. ولعلّها في داخل نفسها تحلف ألّا تعيره مرة أخرى.

ألّا يذكـرك هذا، يا بُنَيّ، بقصّة الرّجل

obeikandl.com

الـذي استعار جُبّة من صديق ليحضر معه مناسبـة كبرى، فأعاره هذا جبة، وجلس بجـانبه على المائدة، وأخذ ينبّهه: «يا فلان إرفـع اكـمال الجبّـة حتى لا تلمس الادام» «تـأكّـد أنّك لم تجلس على نقطة من الادام سقــطت على الأرض التي أنت عليهـا» أو يقـول بصـوت عال: «مـا أحلى الجبّة وأنّها منــاســبــة لهذه الحـفلة، وكــأنها «مفصّلة عليك» . فلمّا انتهى الحفل، نبّهه صديقه بأنّه أخجله بكلماتـه، وعرّف النّـاس أن الجبّة ليست جبّته. فوعده هذا أنّه لن يكرّر ذلك في المستقبـل، ولكنّه عندما أعاره إيّاها مرة أخرى ذهب معه، وبدلا من أن ينبّهه بابعاد كمّه عن الادام، صبر حتى ابتعد هذا عن الأدام من نفسه وبدون تنبيه، فقال له فورا: «أرأيت عندما كاد كمّ الجبّة يلامس الادام لم أقل كلمة واحدة، حتى لا يتنبّه الآخرون» . وبقي على هذه الحال لا ينبّهه فورا، ولكن

obeikandi.com

بعد فوات المحذور وأمام النّاس. فوجد صديقه أن لا فائدة من تبصيره، والأسهل من هذا عدم استعارة الجبة.

وعلى ذكر الجبّة، يا بُنَيّ، هناك قصّة تروى عن الجبّة والأكل، لو رجعت إلى كتب الأدب لوجدتها هناك، ولكن لأني لست على يقين أنّك سوف ترجع إليها سوف أرويها لك هنا، وقد أتذكّر شيئا عن جبّة أخرى، فأنا أسرّ عندما أعثر على قصص أعطيكها دينا هنا، فقد لا أجد غيرها في مكان آخر:

دعي شخص محترم إلى وليمة، فلما ذهب ردّه الذين يحرسون الباب، ولم يجدوا أنّ هيئته ترقى به إلى هذه الدعوة، وعلم أن ما يرقى به هو لبس الجبّة، فعاد إلى بيته، ولبس الجبّة، وجاء، فأدخلوه على الرّحب والسّعة. فلما جلس على المائدة أخذ يغطّ كم الجبّة في هذا الادام وذاك الأدام، مما جلب نظر النّاس، واستغربوا فعله، فقال لهم:

«لا تستغربوا، فالجبّة هي المدعوّة، ولست أنا»، فاقتصّ بهذا التّهكم من صاحب الباب الـذي ردّه لأنـه لم يكن يلبس جبّـة. ولعلّ صاحب الـدّعوة من الغنى والشرف بحيث يعـوّضـه جبّـة جديـدة بدلا من هذه التي «كرعت» في الأيدام.

وقصّة أخرى عن القباء وهو أخو الجبّة:

كان هنـاك خيّـاط، ليس له إلا عين واحدة، وجاء أحد الشّعراء ليخيط له قباء، فلما خاط الخيّاط القباء سأل الشاعرَ إن كان أعجبـه، وأنه جاء على ما يريده، فلم يرد الشّاعر أن يعطيه الجواب واضحا بيّنا، وإنّما قال له سوف أعـطيـك بيتين تعرف منهما إن كنت راضيا عما فعلت أم لا؟، قال:

خاط لي عمرو قباء ليت عينيه سواء
ومن الـذي يعـلم أمديح هذا أم هجاء

لا أحد يعلم، يا بُنَيّ، إلى اليوم إن كان الشّاعر مدحه أم هجاه، فالخيّاط له عينان: سليمة وسقيمة، والشّاعر دعا له أن تتساويا، هل يقصد أن تساوي الصّحيحة السقيمة فيعمى، أو تساوي السقيمة الصّحيحة فيبصر بهما.

ولو دخلنا، يا بُنَيّ، في قصص الملابس لما خرجنا، لأنّ الأدب العربي مليء بالقصص المدونة عنها، وهي قصص طريفة، والقصص عادة لا تدعو إلى التّدوين إلّا إذا كانت طريفة، وقد تكون مفرحة وقد تكون محزنة، والقصّة التي سأذكرها، يا بُنَيّ، ليست عن ثوب بعينه، ولكنّها عامة، وكل الصّيد في جوف الفرا، إن وجدنا فيها بعد شيئا مجزئاً ممّا في جوف الفرا فلن نبخل به عليك:

تولّى أحد السّلاطين المُلك، وجاءه المسؤول عن ادخال النّاس للسّلام، وسأله كيف يُدخِل النّاس، وما هي الفئات التي تقدّم والفئات التي تؤخّر؟ فقال له السّلطان:

إدخل العلماء ثم الوزراء، ثم كبار التّجار، ثم أصحاب الحرف، ثم رؤساء العسس، ثم ادخل آخر من تدخل الذين يلبسون ثياب الشّتاء في الصّيف، وثياب الصّيف في الشّتاء.

هؤلاء هم الذين يكتفون بما يسترهم، ولا يدقّقون فيما إذا كان مناسبا للوقت أم لا. والكلمة هذه ترد أحيانا على لسان بعض الكبار علما ومقاما يقولونها تواضعا، فيما لو سألهم أحد لا يعرفهم، ويقولونها فيما لو أرادوا أن يخفّفوا من حدة اكرام مكرميهم لهم.

ولعلّ من المناسب، يا بُنَيّ، أن نأتي لك بقصّة من تراث بلادك، ولعلها تدوّن لأول مرّة، وإن لم ندوّنها فقد تضيع. وأمثال هذه النتف من القصص يجب أن نحرص عليها، فإذا فعلنا تجمّع عندنا حصيلة مثلما تجمّع لمدوّني الأدب الأموي والعبّاسي. وتتكامل بأمثال هذه صور بدونها تكون الصّورة العامّة لزمننا ناقصة:

obeikandi.com

دخل رجل خلوة أحد المساجد، والخلوة عادة تكون مظلمة لأنّها طابق تحت الأرض، ونوافذه صغيرة، أو مقفلة. وكان هناك رجل نائم، وهو أحد السّاخرين. فعثر السّائر بالنّائم، وقال العاثر: «ما هذا؟» فأجاب الآخر: «عباءتي وأنا فيها».

إنّ ملكة السّخرية عند بعض النّاس هبة، أرأيت، يا بُنَيّ، كيف جعل غير المهمّ هو المهمّ، وبدأ به، وجعل المهمّ ثانويا، فتحقّق له جانب السّخرية، وخلّد جوابه بهذا، ولو قال: «أنا فلان وعليّ عباءتي» لما رويت القصّة.

والقصص الطّريفة، يا بُنَيّ، تدعو إلى التّدوين، ويلفت النظر إليها غرابتها، وغرابتها تأتي من أنّها تجرى على غير النّسق الذي اعتاده النّاس، وسأعطيك مثلا على هذا، يفيد فيما سيق من أجله، ويحقّق الهدف في تدوين بعض هذه النتف التي أشرت إليها سابقا في حديثي معك عن التّدوين:

عيّن قاض في سنوات مضت، لعلها تزيد عن الخمسين سنة، في هجرة من هجر البادية مستحدثة، وجاءت الجمعة الأولى، وأعدّ القاضي، وهو امام المسجد، خطبة الجمعة، واستفتحها بحمد الله، وكان المسجد ممتلئا بالمصلّين، وفي الصّفّ الأوّل جلس كبار العشيرة وشيخها، وكان الامام اختار للحمد جملة: «الحمد لله الذي جعل الموت راحة للأبرار» وبدون شعور، وبصوت عال قال شيخ القبيلة: «امحقها من راحة» فكاد يغشَى على الإمام من الضّحك، ومن حسن حظّه أنّ الورقة التي كان يقرأ منها كبيرة، غطت وجهه، بحيث ظنّ من يرى اهتزازه من الضّحك، أنّه في «خشعة». ولكنّ الضّحك استمرّ، واهتزاز الإمام زاد، فتذكّر، كما يروي هو، حكمة عرفها منذ الصغر، وهي أنه إذا غلبك الضّحك فانظر إلى أظافر يدك، ففعل هذا، وانقشعت سحابة الضّحك. وأكمل الإمام الخطبة وهو

يلوم نفسه على عدم توفيقه في اختياره لجملة لم تكن الأفضل لهذا المقام.

وصاحب هذه القصّة رجل عالم ديّن وظريف، لا يمـلّ مجلسـه، لأنّـه صاحب قصص مسلّيـة، وأشعار طريفة، وبعض قصصه سوف أهمس بها في اذنـك اليمنى، حتى لو احتجّت اذنك اليسرى، فهي لا يُبَرُّ بها إلا أذن واحـدة، وأرجـو ألّا يخوننا رأسك فيصلَ بين الأذنين، فإن تمّ هذا فأرجو ألّا «يتبيزع ويتليقف» لسانك، ويقوم بدوره، فقد لا يحسن اختيار المناسبة، وهو في هذه السن.

وسـأختتم الكـلام عنـه بما يعـطيـك فكرة عن سماحته، «وحبابته» وخفّة دمه أو طينته، ويفتح لك نافـذة صغيرة على نوع من شعره، وأسلوبه فيه، ففيـه من الفكـاهة والمرح والطّرافة ما جعل دائرة أصدقائه ومحبّيه يردّدونه، ولعلّه جديد في بابه خاصّة في الشّعر الشّعبي. وقبل أن أنسى، عليك مقابل هذه المتعة أن تدفع الثّمن، والثّمن غال، ولكنّه لا

يكلف: عليك بعد قراءة الشّعر أن تقول: رحم الله الشّيخ رحمة الابرار:

يا مرحبـا بك عد ما ينـفس الميت
واعداد وسط اللّيل ما تطلع الشّمس
واعـداد ما سَافَـر إلى مكّـة كميت
واعـداد ما يركـز على السّطح من غرس
واعـداد ما خرفـت سواري الـبيت
واعداد ما كنز الحصا واظهر الدبس
واعـداد ما قهوى من الجن عفريت
واعداد ما يقلع للدّيـك من ضرس
واعـداد ما لبست ثيـاب المسـاليت
بنـت الجبـل مسـترّة ليلة العـرس
واعـداد ما لبست ثيـاب المتـافيت
حفّـالـة في عرس بسّـه على بس

أرأيت، يا بُنَيّ، كل هذه الستّة الأبيات، ولم يرحب بمن أوهم أنه رحب به.

كثيرون، يا بُنَيّ، الظّرفاء الذين تمتّع بوجودهم مجتمعنا، وكانت لهم قصص طريفة، لم تدوّن للأسف، وهي تحمل في ثناياها صورا جميلة لمجتمعنا المتآخي المتحابّ، بتواضعه، واندماج طبقاته، ولعلّه يتاح لها في يوم من الأيّام من يتقصّاها، ويدوّنها فهي تستحق ذلك، وإذا لم تدوّن ضاعت، وقد بدأت تبهت مع الزّمن، وتحرّف مع كثرة التّناقل، ولو جمعت هذه القصص ورتّبت تحت أسماء أصحابها لجاء منها كتاب، لا يضعه المرء من يده قبل أن يأتي على ما فيه:

أعطيك مثلا، قصّة ذلك الرّجل، الذي كان يصحب أحد قواد الجيوش النّابهين، ولكثرة الحروب، ولما يمرّ على المنطقة من جيوش، وما يتّصف به كل جيش من عدل أو ظلم. في وقت كانت الفوضى ضاربة أطنابها، وقائد هذا الجيش باذل جهده لاعادة الأمن والاستقرار، فكان يمرّ عليه وعلى جيشه وقت طويل، وعيشتهم التّمر

والماء، فأرادوا يوما أن يستطعموا اللّحم، فبحثوا عن أغنام فلم يجدوا، فذهب هذا الشخص الظريف يستقصي المنطقة، ويمرّ بالفلاحين، فيتعذرونه. فنزل طموحه إلى السّؤال عن الدّجاج، فكانوا ينفون وجوده، فهداه الله إلى حيلة، تذكّرها من حصيلة شبابه. تذكّر أنّ الدّيك إذا سمع أذان الدّيك فانه يجاوبه حالا، والغريب أنه لا يفرّق بين صياح الدّيك الحقيقي، وتقليد النّاس لصياحه. فصار هذا يدور على سور المزرعة، ويقلّد أذان الدّيك، فإذا «وازن» حظيرة الدّجاج أجابه ديكهنّ، فحينئذ يخجل الفلاح، ويبيعه الدّجاج.

هذه قصة طريفة وفيها جانب من التّاريخ إن لم تدون ضاعت أما من هو الرجل وما هي المنطقة، فهذه من الأمور التي سوف «أَبُرُّكَ» بها وحدك، لأنّي لم أستأذن أصحابها، وقد سمعتها من والدهم ـ رحمه الله ـ.

وقصّة أخرى لهذا الرّجل: قام بمرافقة شخصيّات انجليزيّة مهمّة قبل خمسين عاما، وخدمهم اكراما لمن طلب منه ذلك، وقبل عودتهم إلى بلادهم أرادوا أن يكرموه، وطلبوا منه أن يخبرهم بما يريد، وكانت بريطانيا، في ذلك الزّمن، تسيطر على جزء كبير من العالم بمستعمراتها، وألمحوا له أنّه لا يعسر عليهم شيء يطلبه. فقال إنّ كلّ شيء عنده، وأنّ مضيفهم الذي كلّفه بمرافقتهم لا يقصّر في حقّه، بل إنّ كلّ شيء يملكه قد وضع مفاتيحه عنده. فأصرّوا فقال لهم: حسنا، سوف أطلب، ولكنّكم لن تستطيعوا تلبية طلبي، ودخل الأمر في شبه تحدّ، فقال: «أريد عشرا»، ورفع أصابعه العشرة أمامهم. فسألوا: عشر سيارات؟ أو عشرا من الخيل، فقال؛ «بل عشرا من السّنين تضيفونها إلى عمري» «فماتوا» من الضّحك،

وعرفوا أنّهم أمام رجل لم يوضع لمرافقتهم إلا لعقله. ـ رحمه الله ـ ورحم من كلّفه بالمهمّة.

واسمع، يا بُنَيّ، هذه القصّة ما دمنا في سياق تدوين بعض القصص، وهي مليئة بالحكمة، إذا صحّ هذا التعبير:

كان هناك رجل في إحدى مدن المملكة الكبيرة، ولعلّ الأولاد وجدوا فيه ما جعلهم يجرون خلفه، ويردّدون اسمه، وهو أمر مزعج لا يصبر عليه أحد. فاضطر أن يلتقط الحصى من الأرض، ويرميهم به، أو لعلّه ضرب أحدهم بعصاه، وقد يكون أضرّ بأحدهم أو ببعضهم فشكى إلى قائمقام هذه المدينة، فأحضره، وأخذ يؤنّبه على فعله، وعدم صبره، وعدم تحمّله لمثل هذه الصغائر من هؤلاء الصّغار. فقال للقائمقام: «صلّ على النّبي» فصلّى على النّبي، فقال له: «قل لا إله إلا الله» فنطق بالشهادة حسب

الطلب، وأخذ الرّجل يطلب من قائمقام مرة أن يصلّي على النّبي، ومرّة أن يذكر الله، مرّات ومرّات ومرّات، حتى كاد قائمقام أن يخرج من ثيابه من الضّيق، فقال له: «أرأيت؟ أنت لم تتحمّل الصّلاة على النّبي، ولا لا إله إلا الله، وترديدهما، مع أنّ لك في ذلك أجراً، وتريدني أن أتحمّل جيشا من الأولاد في الشّارع، تسلّط عليّ من بين النّاس أجمعين، يجرى خلفي، وينادي اسمي، دون داع، ويلفت النّظر إليّ». فصمت قائمقام، وأقرّ له بأنّه على حقّ، وسمح له بأن ينصرف معافًى.

لولا أنّي، يا بُنَيّ، أخشى أن أخرج الحديث عمّا قصد له، لبقيت أقصّ عليك من مثل هذه القصيصات من نواحي المملكة وقتا طويلا، ولجعلتك تفرح وتبتهج. ولكنّنا التزمنا بأمر، وسوف نوفّي التزامنا، فلا نطرق إلا ما يدخل في حديثنا أو ما يجرّ إليه الاستطراد.

وفي المجتمع القديم في بلادنا، يا بُنَيّ، في المدن والقرى صور عجيبة لهؤلاء الذين يعتبرون في عرف ذلك الزمن مهابيل أو مجانين، وقد يكونون كذلك، أو قد يكونون في منتهى العقل، وغاية الادراك، ولكنّ مجتمعهم قصر عن فهمهم، فرماهم بالجنون، لأنّهم جاؤوا في تصرفاتهم بما يخالف ما اعتاد النّاس عليه من نسق وأسلوب حياة. وبعضهم قد يكون الأمر بدأ معه طفيفا نتيجة حالة طارئة، فلاحظها صبيان الحيّ، فثبّتوها بأذاهم لأصحابها وزادوها حدّة وعمقا، بتعرّضهم لهم في الطّرقات بالاستهزاء والضجيج ورمي الاحجار، واتّخاذهم إياهم لعبة يتسلّون بها، ويقضون بها وقتهم، دون أن يفكّروا في صاحبها، وجرح شعوره. ودون أن يتدبّروا ما قد يتعرضون له بسببها من أخطار نتيجة تصرّف المجنون معهم تصرّفا يدفعهم إليه أذاهم، وإلحاحهم في الأذى. فكم من عاقل أوصلوه إلى حافّة الجنون، وكم من شخص كان على حافته فدفعوه هاويا إلى قاعهِ، وكم

حصدوا هم أنفسهم وأهلوهم مآسي من جراء ذلك.

هذا صغير معتوه شبّ مع جماعة من الصّغار في الحيّ فما شبّ عن الطّوق حتى أضحى ألعوبة لهم، يوجّهونه مثل الحيوان الأليف، يدفعونه إلى أعمال تضحكهم وتضحكه: أما أن يُركبوه حمارا عكس طريقة النّاس، فيجعلون وجهه تجاه ذيل الحمار، أو يسير وعليه أسمال مزرية مضحكة، أو يردّد كلمات بلهاء مسلّية، يسير وخلفه مجموعة تنادي بعبارات تدلّ على الاستهزاء والسّخرية. ويشبّ جيل ثان يأخذ من الجيل السّابق، الذي لم يعد يليق به اليوم ما كان مقبولا منه بالأمس، عادة الجري وراء هذا المعتوه الذي قد لا يقبل منهم ما كان يقبله من سابقيهم، فتزداد الهوّة بين الجيلين، ويبدأ التنافر. وتستجدّ صورة جديدة.

وهذا رجل جنونه موسمي، لا يأتيه إلّا في الصيف، والغريب أنّه في غير الصّيف لا يُرى، ولا يُعرف أين يختفي، يذهب إلى قرية أخرى، يلبس فيها لباس العقل، فلا يُدرى هل جنونه في الصيف مفتعلٌ أو أنّ الصّيف يثير كوامنه. يسير عندما يصاب في الصّيف، وقد ألقى غطاء رأسه، وهذه أوّل علامات الجنون، وتجده بين الأطفال وفي أسواق النّساء، وبينه وبين الأطفال رفقة وصحبةّ وتفاهم تامّ، هم معه طوال النّهار في مرح، يجمعون النّوى[1]، ويشترون به من فاكهة الموسم تمرا أو بطيخا، يأكلونه، وله منه النّصيب الأوفى، إذ لا أهل له يعوضونه ما فات. ويحزن الأولاد ويفتقدونه عندما ينتهي الصّيف ويتركهم إلى حيث لا يدرون أين ذهب.

(١) أهميّة نوى التّمر في الماضي بالغة، يستعمل علفا للبهائم، يقول الجزيري، في حوادث عام (٨١٥) بلغت وبية النّوى لعلف الجمال (بمكة) بأفلوري (نوع من النّقد) يدلّل بذلك على الغلاء. الدرر ٦٩٥/ ١.

وذاك المجنون الذي تراه وفي يده «محجان» لا ليضرب به أحدا، ولكن ليكسر به أجزاءً من الجصّ يأكله، ترى بقاياه على جوانب شفتيه. وهو عدوّ أي عمود ملبس «جِصّاً»، سواء كان على طرف بيت، أو في مسجد أو معتمدا عليه دكّان. تجد آثار ضربات مشعابه أو محجانه ندوبا في كلّ عمود في المدينة فيه جصّ، حتّى أنّ بعض النّاس يتفادى أن يضع الجصّ على شيء خارج البيت خوفا من أن يغير عليه هذا المسكين الذي قد يكون لديه نقص في الكلسيوم، ولو كان في زمننا ربما عولج على هذا الأساس.

وذاك الذي لا بدّ أنّ ميزان عقله قد اختلّ، نتيجة رجّه أصابته، فهو كفيف لا يبصر، ومع هذا فهو يصل إلى هدفه بسرعة فائقة يقف في وسط المدينة فإذا مرّ به راكب حمار أمسك بذيل حماره حتى يوازن المكان

الذي يقصده فيتركه، يفعل تماما، مثل الذين «يتشعبطون» في الترام، إلا أنه لا يخشى من «الكُمْسَاري» موزّع التذاكر، جامع النّقود، يلتفت راكب الحمار فيراه، ولا يزيد عن أن يبتسم، وليس هو الوحيد الذي يبتسم، وإنّما يشاركه في هذه المتعة أصحاب الدّكاكين الذين يمرّ بهم يمينا وشمالا، وكذلك المارّة.

ولهذا الرّجل عادة عجيبة، أكله وطعامه على النّاس، كلّ يوم من السّنة وَجْبته الرئيسية يأخذها من البيت الفلاني، يأتي قبل الموعد بيوم وينبّه أهل البيت على يومهم، ويأتي في الموعد، ويأخذ الإناء المليء بالأكل، ثم بعد أن يأكل الطّعام يغسل الاناء، ويحذفه من كوّة الباب. ولهذا تُحذّر النّساء بعضهن بعضا من إعطائه الأكل في إناء ينكسر، ويمرّ العام وهو لم يكلّف بيتا أكثر من وجبة واحدة

في السّنة، وهو رجل متديّن، ويقال إنه كان طالب علم في أول حياته في إحدى البلدان العربيّة. وهو موسوس عندما يتوضّأ، وهناك بركة مشهورة في بلدهِ، ينزل فيها عندما يَتوضّأ غامرا جسمه كلّه في الماء، ليطمئّن إلى أنّ وضوءه قد كمل وقد أسبغ.

ويأتي بحركة عجيبة تعوّد عليها مؤذّن المسجد الذي يصلي فيه، ولكنّها تكاد تدفع الذي يفاجأ بها إلى الجنون، فهو إمعانا في اسباغ الوضوء، ولأنّه يقوم قبل النّاس لصلاة الفجر، ولا يجد ماء، ولا أحد «يزعب» يمتح له دلوا أو دلوين من البئر، أو لعلّ ما يكفي الآخرين لا يكفيه، وقياسا على ما يفعله في البركة، فهو ينزل في البئر. ويسبح ويتوضّأ بالطّريقة التي يرتاح لها، ثم يجلس منتظرا أسفل البئر أول وافد إلى «الحسو»، حسو المسجد، وفي الغالب يكون المؤذّن هو أوّل وافد، يصبّ دلوا أو دلوين في «قرو»

الحسو احتسابا ومساعدة للمتوضّئين، وعندما يهمّ بجذب الدّلو من البئر، ويكاد يعرف من أنزله، يأتيه صوت الرّجل من أسفل البئر، يقول له: احتسب، و «ازعب» أخيك فلان، (يعني نفسه)، أي ساعده على الصّعود إلى أعلى، ويفعل المؤذّن ما أمر به، وهو يزبد ويرغي ويحسبل، ويستعيذ بالله من الشّيطان الرّجيم، ويعظ أخانا بما يرجو معه أن يقلع عن هذه العادة، فإلى متى يفاجئ بعمله هذا من لا يعرفه وعادته هذه؟ وإلى متى يُغضب كثيرا من المصلّين الذين يشمئزّون من نزوله في البئر، وتلويثه الماء، ولكنّ المؤذّن المؤنّب لا يعدم أن يسمع جواب فقيه عن القلتين في الماء وعدم تنجيسهما من جسمه النّظيف. ويردّد المؤذّن التأنيب، ويردّد أخونا الجواب، بنغمة عدم مبالاة، تبعث على الضّحك، ليست كلماتها فقط، وإنّما الحركة التي يأتي بها الرّجل، «بإعطائه

ظهره» للمؤذّن، تاركا له ليلمّ شعث كلماته التي لم يبال بها هذا السّامع الوحيد، وجسم الرجل النّحيل يأخذ طريقه مختفيا في الظّلام إلى المسجد الملاصق، وليس عليه إلا ثوب لا يصل إلّا إلى منتصف السّاق، صيفا وشتاء، لا «يزرّ» أزاريره ولا يرتج مزاليجها، لأنّه لا وجود لها في الغالب فقد عاثت بها يد الزّمن لتساعده ليتمكّن عندما يريد أن يرفع الثوب فيغطي أعلاه رأسه، ويصبح يطل وجهه من ثوبه، بطريقة تبعث على الضّحك، ويصبح الثّوب ثوبا وغترة، يغطّي بالثوب جسمه ورأسه. ويسمعه النّاس وهو يسير يردّد كلمات رتيبة: «يا عباد الله جدّوا، ربّ داع لا يردّ». رحمه الله فقد كان طيفا من الأطياف التي مرت بإحدى مدن المملكة، أكملت ذاك المجتمع بما بيّنته من تعاطف النّاس مع المعتوه، وتكفّلهم بإطعامه، وتحمّلهم لتصرّفاته، فهو وأمثاله مذكّرات للنّاس

بنعمة العقل الذي يهبه الله لمن يشاء من عباده.

هؤلاء المجانين كانوا صورا مألوفة في البلدان وفي القرى، لو كتب عن كل واحد لضُمّن هذا مجلدات، تحوي من الطّرائف مالا مثيل له. والتأليف عن الحمقى والمغفلين والمجانين ليس غريبا عن الأدب العربي فهو يحوي الكثير منه افرادا في كتاب أو فصلا فيه.

أمّا اليوم فقد اختفت هذه المظاهر، وأصبح من تظهر عليه علامات توحي باختلال العقل يُسارَع بادخاله المستشفى المناسب لحاله، وكثير من النّاس يُتداركون في أوّل ظهور العوارض، سواء كان ذلك بين الصّغار خلقة وولادة، أو كان بين الكبار نتيجة ضغوط نفسيّة، أو عوارض زمنيّة مفاجئة، أو أنها بدأت تظهر تدريجيّا ثم استفحلت. وكانت المارستانات هي أوّل خطوة في هذا الاتّجاه في البلدان العربية. ثم تدريجيا بدأ يتطوّر فيها العلاج

openkanda.com

والرّعاية حتى ارتقت إلى مستشفيات متخصّصة، تؤدّي خدمات جلّى. وأصبحت أساسيّة تنشأ مثلما تنشأ المستشفيات العامّة، ويحسب حسابها في التّخطيط ضمن حاجة المجتمع.

ونعرج قليلا، يا بُنَيّ، لنتحدّث عن بعض المجانين في أزمان ماضية في مجتمع كان فيه من هذه الصور نماذج فريدة، كتب عنها المؤلّفون، لأنّ بعض هؤلاء كان يختلط جنونهم وتصرفاتهم ببعض الأدب الراقي، حتى إِن أحد المؤلّفين ألّف كتابا فريدا سماه «عقلاء المجانين»، فعقولهم من العمق وأفكارهم من الرّقيّ، وأساليبهم الفلسفيّة تجعلهم في مقدّمة العاقلين، ولكنّ بعض أعمالهم تدخل بهم إلى بؤرة انتقاد المجتمع، فهم غرباء عن المجتمع في معيشتهم، وفي لباسهم وفي مساكنهم، وفي تصرّفاتهم في مجتمعاتهم. ويبدو أنّ الجنون ينزل بمستوى الكبير إلى حياة الصّغار، ولهذا في كل زمن نجد المجنون متّصلا بالصّغار إما التحاما أو نفرة، إما صداقة أو عداوة. وبعض ما سأقصّه عليك

obeikandl.com

مستقى من كتاب «عقلاء المجانين»[1] سوف يعطيك فكـرة عمّا أردته، ولعلّه أيضاً يقنعك بالبحث عن الكتـاب والْتِهـامـه، وهـو كتاب قيّم مليء بالشّعر الجيّد، والأفكار الصّائبة، والحِكَم الصّادقة. رغم أنها جاءت على ألسنة المجانين، ولعلكّ تذكر القول المعروف: خذ الحكمـة ولو من افواه المجانين. في هذا الكتـاب من الحكم والافكار والاشعار ما لو اهتممت به واستـوعبتـه حفـظا لرفع من مستوى لغتك وتفكيرك، ولأفادك لتتصرّف في مجابهة الحياة عندما تحتاج إلى مثل هذه الحكم.

سعـــدون هو أحـد المجـانـين العـاقلين، كان «دوجـانه» وتنقله في الأسواق دليل جنونه، ولكن اسمع ما يبديه عقله:

قال عطاء السّلمي رأيت سعدون ينتقل
ذات يوم في الـشّمس فانكشفت عورتـــه،

(١) عقـلاء المجـانين: لأبي القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النّيسابوري. نشر دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

فقلت له: استرها أخا الجهل، فقال: أمالك مثلها؟ واستَتَر. ثم مرّ بي يوما وأنا آكل رمانا في السوق، ففرك أذني، وقال: من الجاهل؟ أنا أم أنت؟ ثم قال:

أرى كل إنسان يرى عيب غيره
ويعمى عن العيب الذي هو فيه
وما خير من تخفى عليه عيوبه
ويبدو له العيب الذي لأخيه
وكيف أرى عيبا وعيبيَ ظاهر
وما يعرف السّوءات غير سفيه[1]

قد لا يتبيّن لك مدلول المحادثة والجدل الذي قام بينهما، ولكن عندما تعرف أنّه في الماضي كان مما يعيب المرء أن يأكل في السوق أمام النّاس، لأن هذا يخدش سمعته، و ينزل قدره، ويسقط مروءته، وقد وصل الأمر في بعض المجتمعات إلى أنّ فاعل ذلك لا يعتبر عدلا تقبل شهادته. هذا ما جعل

(١) عقلاء المجانين، ص ٥٣.

سعـدون المجنـون يقضي دينـه من غريمه عطاء، وأجهز عليه بالأبيات التي أردفها ملاحظته.

أمّا أنتم اليوم، يا بُنَيّ، فتعافون الأكل النّظيف في بيـوتكم، وقد طبخته أمّهاتكم، أو طبخ تحت رقـابتهنّ، وتـذهبون جريا وراء منتجات المطاعم ذات الوجبات السّريعة، وقد تبخترت «الهمبورجه» في أذهانكم، واستولت على عقولكم، ولو أمكنكم الاقتصـار عليهـا وحـدها، تدفعونها مع حلوقكم «بالبيبسي كولا» زيادة في ضمان الأذى، لما كرهتم. ولو قالت لكم أمّهاتكم: تعالوا واجلسوا في البيت وسوف نصنع لكم مثلهـا وأحسن منها، لما قبلتم، لأنّكم نفسيّا مدخولون، وقد استولى عليكم محيط المـطعم والـوقفـة فيه. والله أعلم ما هي محتويات اللّحم، ومـا مدى الصّـافي منـه، وما نسبة الغثاء والسّـاقط، وأنتم تغمضـون أعينكم عن المنفعة، وتفتحونها لتمتّعوها بالمضرّة. وقد لا يتبينّ الأذى في سنّكم هذه، ولكن عندما تتقدّمون في الحياة تجدون

رصيدكم من الأكل الصّحي ومراعاته قليل. وحينئذ لا يفيد التوجّد على الماضي.

أرأيت، يا بُنَيّ، كيف أصبحت دون علمي واعظا، وما أثقل الوعظ على نفس المخالف، ولهذا سوف أنتقل إلى أمر سعدون، فهو أقرب لديك قبولا:

قال إسماعيل بن عطاء العطّار: مررت بسعدون فلم أسلّم عليه فنظر إليّ ثم قال:

ياذا الذي ترك السلام تعمدا
ليس السّلام بضائر من سلما
إن السّلام تحيّة مبرورة
ليست تحمّل قائلا أن يأثما[1]

وهذا مجنون آخر من الحقبة نفسها يسمى بهلولا، وهو من عقلاء المجانين، وله قصص تدلّ

(١) عقلاء المجانين، ص ٥٤.

على أدبه ودينه. ولكنّه مثل غيره من المجانين سلوة الصّغار، ومحط لعبهم:

قال عمر بن جابر الكوفي: مرّ بهلول بصبيان كبار فجعلوا يضربونه، فدنوت منه، فقلت: لم لا تشكوهم لآبائهم؟ فقال لي: اسكتْ، فلعلّي إذا متّ يذكرون هذا الفرح فيقولون: رحم الله ذلك المجنون.

لابدّ أن عنصره، يا بُنَيّ، كان جيدا، فرغم جنونه، وما يأتي به الصّغار مما لا يُصبر عليه، إلّا أنّ بهلول صبر، وأمام عينيه أمر كبير يتطلع إليه وهو رحمة الله التي قد يستنزلها هؤلاء الصّغار عندما يموت، وقد رخص الأذى عندها[1].

وعليّان المجنون شخصيّة تستحقّ أن تقف عندها، وتتمتّع بما سأرويه لك عنها، وسترى كيف لا يتعارض الأدب مع الجنون، أو لعل الجنون لا يمحو ملكة الأدب والصّنعة فيه:

(١) عقلاء المجانين، ص ٦٩.

قال السريّ، مولى ثوبـان: أدركـت بالكوفة مجنونا يقال له عليّان، وكان يأوى إلى دكّان طحّان، وكانت معه عصا لا تفارقه، وكـان الصّبيـان قد علمـوا وقت مسيره إلى الـدكّـان، فيجتمعـون، ويعبثون به، فإذا بلغت أذيّتهم منـه قال للطحّـان: قد حمي الوطيس، وطاب اللقاء، وأنا على بصيرة من أمري، فما ترى؟ فيقول شأنك، فيثب وهو يقول:

إذا همّ ألـقى بين عينيـه عزمه
وأعرض عن ذكر العواقب جانبا

ثم يشدّ مئزره ويقول:

قوم إذا حاربـوا شدّوا مآزرهم
دون النّسـاء ولـو باتت باظهار

ثم يتناول العصا ويشدّ عليهم، ويقول:

أشــدّ على الـكتيبــة لا أبــالي
أَحَـتفي كان فيهــا أم سواهــا

والصّبيـان يهربون، فإذا أرهقهم طرح الصبيـان أنفسهم، وكشفوا عن عورَاتهم، فيعرض عنهم بوجهه، ويقول: عورة المؤمن حِمي، لولا ذلك لتلف عمرو بن العاص يوم صفّـين، والأخـذ بكلام علي رضي الله عنه أولى بنا، أمرنا أن لا نتبع مولّيا، ولا نذفف[1] على جريح، ثم يرجع ويقول:

أنـا الرجل الضّرب الذي تعرفونه
حشـاش كراس الحيّـة المتـوقّـد

ثم يعــود إلى دكّـان الـطحّـان، ويلقى عصاه، ويتمثل:

وألقت عصاها واستقرّت بها النّوى
كما قرّ عينــا بالإياب المســافـر[2]

(١) الذّفّ: الاجهاز على الجريح، ومنه قول الشّاعر يعاتب رجلا:
لمّا رآني أرعشَـت أطْـرافي   كـان مع الشّـيب مع الذّفّـاف
(لسان العرب).

(٢) عقلاء المجانين، ص ٧٥.

obeikandl.com

وقصّة أخرى تريك كيف يسير الجنون مع العقل في لحظة واحدة، لا يفرّق بينهما إلا إلتفاتة، فعليّان مع الصبيان مجنون، ومع العاقل عاقل، «يلبس لكلّ حادثة لبوسا خيال العبقري به يضلّ»[١].

قال عليّ بن ظبيان: مررت يوما بالكوفة، فلما صرت في سكك همدان إذا أنا بعليّان المجنون، وفي يده قصبة فارسية مثل القناة، وفي رأسها كبّة قطن، وعليها خرقة، وإذا هو يشدّ على الصّبيان، فإذا أدركهم، قالوا: القصاص يا علي، ثم يلقى القصبة من يده، فلما رأيته تهيّبت أن أمرّ بين يديه، فقال لي: مرّ يا علي، فلست منهم... قلت له: من العاقل؟ قال: من حاسب نفسه، وخاف ربه[٢].

وهذا عبدالرحمن بن الأشعث، أصيب بالجنون بعد العقل. كان إذا خرج من بيته

---

(١) من قصيدة لأستاذنا عمر الدسوقي، رحمه الله.

(٢) عقلاء المجانين، ٧٦ .

أُولع به الصبيان يؤذونه، ويقولون: يا دحمويه! فلا يجيبهم. وإذا قيل له: يا عبدالرحمن! قال: لبّيتكم أنا عبدالرّحمن. قال سيف بن سوار، قاضي واسط: رأيته يوما والصّبيان يرمونه بالحجارة، فقلت له: إرمهم، وكُفّهم عنك، قال: لا أفعل، يمنعني من ذلك خصلتان: خوف الله عزّ وجلّ، وأن أكون مثلهم[1].

و«فليت» معتوه من معتوهي ذلك الزّمن، ومثل الآخرين كان لعبة الصّبيان، ومرمى تفكههم. قال عمرو العسكريّ رأيت «فليتا» يوما والصّبيان يرمونه بالحجارة، وهو يقول: ﴿ولمن صبر وغفر إنّ ذلك لمن عزم الأمور﴾[2].

هذه لمحة من ملامح ذلك العصر ومجانينه، تعطيك صورة من الصّور التي كان يعجّ بها

(١) عقلاء المجانين، ٨٠.

(٢) عقلاء المجانين، ٨٢، القرآن الكريم، سورة الشورى، الآية ٤٣.

مجتمعهم، ولم يخل مجتمعنا المتأخّر من أمثال هؤلاء، وأشعارهم كانت باللّغة العامّيّة، وكانت ممتلئة بالحكمة، وعجيب القول. ولعلّ بعض المتخصّصين يتفرّغ يوما فيجمعها من البادية والحاضرة.

ونعود، يا بُنيَّ، إلى ما كنّا فيه، فقد أبعدنا، ولكنّ الحق في هذا على الجنون، وهو يتحمّل كلّ لوم، وعلى كلّ نستطيع أن نحمّله ما يتحمّله بحقّ، وبغير حق، لأنّه خلاف العقل، والمخالف للعقل يستحقّ أن يُعنَّى.

سوف نأخذ، كما سبق أن فعلنا، يا بُنيَّ، زاوية حادة في رجعتنا إلى صلب الموضوع، وهو الحاوي. وكدنا ننساه من كثرة الاستطراد. وبعض الحاويات من الأوعية سبق أن تحدّثنا عنه، وهو دلّة القهوة، وابريق الشّاهي. والآن ما دمنا في مجال الشرب وهو أخو الأكل نمدّ يدنا أو على الآصحّ لساننا، إلى القِدر، ونتحدث عنه.

obeikandl.com

والقدر بطل من الأبطال التي تلعب دوراً مهمّا في حياة النَّاس، وأعجبُ، يا بُنَيّ، أنه لم يوضع له تمثال عند الأمم التي تهتمُ بالنُّصُب، فهو كما تعرف ملازم للنّاس في كلّ القرون، وله فضل على البطون وغير البطون. ومع هذا فلم يهتمّ به غير صانعيه، والمستفيدين منه في حدود ما وضع له لسدّ الحاجة. وتطويره فيما بعد، اهتماما، جاء لغرض الرّبح من الصّانع لمّا رأى حاجة النّاس لذلك، ولغرض تعدّد الفائدة واتقانها من المستعمل المستفيد. وكما ترى وصل هذا التّطوير إلى أن أصبح بطن القِدر أكثر من بطن: كل بطن يطبخ فيه صنف من الطعام لا يختلط بما يجاوره، وأصبح القدر كأنه بيت ذو غرف، كل غرفة مستقلّة عن الأخرى. وهناك قدر البخار، وهو قفزة في التّطوير، سمحت للطّابخ بميزات لم يكن يحلم بها، فقد اختصرت له وقت الطّبخ، واختصرت له الوقود، وهذان أمران اختصارهما مكسب لا يستهان به. هذا عدا ما دخل على المادّة التي يصنع منها القدر من تحسين، إذ

أصبح القدر أخف كثيراً مما كان عليه، وأصبح تنظيفه أسهل، بل إنّ بعض القدور لا يعلق به الوسخ، وقد لا يحتاج منك زيتا تضعه لتحمي قاعه من الحرق والسواد.

في الماضي، يا بُنَيّ، كان القدر غالبا من النّحاس، وعلى هذا فهو ثقيل، وكما تعرف كانت مهنة الطّبخ للنّساء، والمرأة رقيقة بطبعها، وقد تكون وحيدة، فإذا لم يكن القدر صغيرا، فهو يتعبها بحمله خاصّة بعد أن يكون ممتلئا بالطّعام. وبعض القدور من أجل هذا وضعوا له حلقات عند اطار شفته لحمله بها. والقدور كما تعرف أحجام، منها الصّغير ومنها المتوسّط ومنها الكبير. وقد يصل حجم الكبير إلى ما يطبخ «حاشِي» فتصوّر صعوبة هذه المهمّة، قدر به حاشي، وفي القدر ماء ليسلق هذا البعير الصغير فيه، رَفْع هذا القدر ويسمّى «حْجرى» ووضعه على الأثافي، ثم إنزاله من فوقهَا، بعد أن يكون قد نضج اللّحم، أمر ليس

بالهيّن، ويحتاج إلى عدد من الرّجال. ينقل بعدها الحاشي كاملا إلى صحن الكور، وهو أيضاً مثل القدر من النّحاس، صحن واسع وضع له قاعدة مستديرة ترفعه عن الأرض بمقدار أربعين سنتيمتراً، يتحلّق المدعوون حوله، وقد تصفّ على جوانبه خراف، تجمّل صاحب الوليمة أمام ضيوفه.

والعادة في مثل هذه الولائم أنّه إذا جهّز الأكل وقدّم، يدعى أول فريق من الآكلين إلى «القلطة الأولى»، وفيها الضّيف ومن معه، وللضّيف مهمّة خاصّة هنا، عليه بعد أن يزن الأمر، ويقدّر أنه ومن معه قد أخذوا نصيبهم أن يكفّ يده، وأن يحمد الله يصوت عال، فيكفّ الآخرون أيديهم، ثم ينسحبون، وتأتي الدفعة الثانية، وتجلس على سفرة الأكل، ويأكلون أيضا نصيبهم، وبينهم من ينظر إليه على أنه هو الذي يزن كفايتهم، ويفعل مع دفعته ما فعله السّابق مع دفعته، حتى يتداول الأكل دفعات، من بينها العاملون الخادمون للضّيوف ومن بينهم المضيف. والنّساء لهن «قلطة» أيضاً.

والقصص عن الطّرائف التي تقع، يا بُنيّ، عن الأكل، وعلى الأكل كثيرة، سأقصّ عليك هنا واحدة منها:

يأتي الضّيوف فجأة، ويطرقون باب من يتوسمون فيه الاستجابة لإضافتهم، وتكون حالهُ رقيقه، أو يكون عددهم أكثر مما يستطيع تقديمه، فيحتال في توفير الطّعام ليرضي هؤلاء الضيوف، الذين فاجؤوه على غير موعد. وقد يحتال في غير توفير الطعام كما حدث لصاحبنا الذي سوف نروي قصته:

جاء ضيوف نزلوا فجأة على رجل لم يكن عنده من الطّعام ما يكفيهم بدفعاتهم المتعدّدة، وكان الوقت شتاءا، والشّتاء ببرده يضيف إلى شره النّاس في الأكل شرها. فقدّم لهم ما استطاع تقديمه، وخوفا من أن يجلسوا حتى يشبعوا، فلا يبقون لغيرهم شيئا، قال لهم عندما دعاهم إلى الأكل: «تفضّلوا، وبعد

obeikandi.com

هذا. تفضّلوا إلى «الشراع» الثاني ففيه لكم «عـنجليّــة»، الله يحييكم على هذه ثم على تلك». و«عنجليّة» كلمة غير محدّدة المعنى، فهي وصف لمجهول، وتوحي بأنّه شيء مجزل وكبير. فظنّوا أنّه «فريكة» أو أكلة أدسم من هذه. فأخذوا من طعامهم برفق، ولم يوغلوا فيــه إلا بمقــدار ما كان بهم من جوع لم يستطيعوا منع أنفسهم من إسكاته. وقلوبهم معلّقة بالعنجليّة، وسرعان ما قال قائدهم الحمد لله! وكفّ يده عن الطّعام، و«فزّوا»، قامــوا من الأكــل، وجــلس الآخــرون المنتــظرون، فذهب هؤلاء بقلوب تخفق، وشهيّـة مفتـوحـة، وأسنـان مسنونة، وأيد متـطلعـة، إلى الشّراع المنصوب غير بعيد. ووجدوا لخيبة أملهم العنجليّة. التي أعماهم طمعهم وجوعهم وشرههم عن أن يحدسوا ما هي، كانت نارا «تـرعـد» أطـول من قامة الرّجل، «فاكهة الشّتاء» هذه، يا بُنَيّ، هي

العنجليّـة، لم تكن فريكة برّ وسمن وتمر. وقد فات وقت العودة إلى الأكل الأوّل، فقد أعقبهم عليه أسود شرى، وقعوا عليه كأن بينهم وبينه ثأرا.

نجـا الرجل، يا بُنَيّ، من اللّوم، فقد ضيّف، وقـام ضيـوفـه والأكل باق لمن يليهم. وهي حيلة حاذقة، وما للمضطرّ إلّا ركوبها.

وقصص الأكـل وطـرائفه لا تحصى، وبعضها ينصبّ على الأكل وعادات النّاس فيه. واختلاف العادات:

سافـر مفتش للدّولـة العثمانية إلى قبائل شمال الجزيرة ليتفقّد أحوالهم، فأصرّ رئيس إحـدى القبـائل على أن يضيّفه، ويقيم له مأدبـة، يدعـو إليهـا عشـيرتـه، فاستجاب المفتّش للدّعـــوة، وكـــان يصحبـه في هذه الرحلة ابنه الشّاب، ولم يكن يعرف عادات البـاديـة و«سلومهم»، لهذا لمّا جلسـوا على

الطّعام، أهوى الشّاب على لسان الخروف الـذي يليـه، واقتلعه، وأكله، و«تكهرب» الجوّ و«تمسّس» النّاس دون أن يدري الشّاب لذلـك سببـا، ولم يستـطع والـده في هذه اللّحظة أن يخبره بخطئه، الذي سوف يضطرّ صاحب الدّعوة معه أن يعوّض الضّيف عن هذه الدّعوة، لأن أكل اللّسان إشارة إلى أنّ ما قدم أقلّ من أن يفي بشرف الضّيف.

وبمجرد أن انتهى الآكلون دعا الدّاعي ضيـوفـه جميعـا على الغداء في اليوم التّالي، وضاعف ما قدمه في اليوم الأول، ولم ينفع معه شرح الضّيف لجهل ابنه.

وكان درسا محرجا للشّاب، وأرجو أن لا يكون «توّبه» من زيارة البادية، ومضاربهم، والتّعرف على عاداتهم.

وفي العادات في البادية من الغرائب ما تراكم مع الـزّمن، مما دعت إليـه حيـاتهم، واقتضتـه طبيعة

الصّحراء، وفي هذه العادات من المخاطر ما قد يثير الفتن، ويوقد نار الحرب. من بين العادات أنّه إذا «تنحنح» شيخ من شيوخ القبائل التي حضرت الوليمة كفّ النّاس إيديهم عن الأكل، وهي علامة للاكتفاء، وتأتي في الوقت المناسب عندما تَصفو النيّات، وتساعد المضيف على مظهر كفاءة الأكل للضّيوف، فلا يوغل الجالسون على الأكل في الطّعام فلا يتركون للدّفعة الثّانية والثّالثة ما يقيتهم.

ولكن قد يقصد أحدهم الأذى، «فيتنحنح» ويحمد الله، ويكفّ عن الأكل بعد ثوان من البدء فيه، إمّا حرمانا لشيخ قد يكون أكبر منه، أو مثله ولكنّه يريد أن «يخطم عليه» ويتقدّمه، أو يريد أن يحرم المضيف من كمال الشّرف، ولكنّ الأمر لا يقف عند هذا الحدّ، بل ترد الصفعة بأكبر منها، ثم تكبر كرة الثلج حتى تهرس في طريقها أفخاذا وعشائر وقبائل.

وقد انقطعت هذه العادة بعد أن استتب الأمر

للملك عبدالعزيز، فقد أراد أحدهم أن يجرّبها معه، ولكنّ العبقري عالج الأمر من جذره، وقال بوضوح إنّه لن يقوم من السّفرة حتى يشبع هو ومن معه من هذا الأكل الوافي الطّيب، وأنّ هذه هي العادة السّعودية. فبقي هو والنّاس، وما نال الذي نهض إلا الحرمان. وأصبح الأمر قاعدة، أوّل من يقوم يقول: «إنّها سعوديّة» فلا يقوم إلّا من شبع. ومن توفيق الله أن هذا صادف سعة الرزق في هذه الجزيرة، ممّا أنجح القصد في هذا التّرتيب.

في بعض مناطق من الجزيرة يوضع الخروف مطبوخا أمام الضّيف، وأول عمل يقوم به هو أن يُنحّى جزء معلوما منه لصاحبة البيت، التي طبخت وتعبت، ومعها من ساعدها، أو جاء ضيفا عندها. ويحدث مشكلة لو لم يتمّ هذا، وأقبل الضّيوف على الخروف بكامله، دون أن يرسلوا لها قسطها.

وفي بعض مناطق الجزيرة يوضع الخروف أمام الضّيف، فيقسّمه كلّه بالقسطاس المستقيم بين

الضّيوف الحاضرين، يعطي كل واحد من كل جزء منه ما يسمح به عددهم، فكل واحد يناله قسم من «اللّية» ومن القلب، ومن الكبد ومن الكلى، ومن هبرة الفخذ، ومن موزة العضد، ومن فقار الظّهر، يصغر الجزء ويكبر، حسب عدد الحاضرين.

هذه العادات بدأت تنقرض، يا بُنَيّ، ويحلّ محلّها العادات التي ليس في جوانبها ما يستغرب. والحمد لله على هذا، لأنّ بعض هذه العادات من السّوء بحيث تجعلك تستغرب كيف بدأت، وكيف صبر عليها النّاس. فمثلا يعتبر من الإهانة عند بعض القبائل النائية المنعزلة في جوانب الجزيرة، ألاّ «يكرّع» «يتغر» يتجشّأ الانسان بعد الأكل، مما يضطر النّاس إلى بلع الهواء حتى «يكرعوا» أو «يتغروا». هل هناك أمر أبشع من هذا، يا بُنَيّ؟ لهذا دعنا ننتقل إلى غيره.

وسأنتزع ذهنك بعيدا عن هذه الصّورة البشعة انتزاعا، وانقلك إلى أمر تحبّه، قصّة ضحلة عن

جحا والأكل، أو لعله أشعب، فأحيانا الاثنان يتعارض طريق أحدهما مع الآخر. المهمّ عندك القصة وليس أشخاصها وإن لم تملأ عينك هذه فسأقص عليك أخرى من البيئة، وأرجو ألاّ أكون قد قصصتها عليك من قبل[1]:

مرّ جحا بدار أحد الأشخاص الذين يعرفهم ويجاورونه، وشمّ رائحة سمك، فقرع الباب، فلما عرفوا أنه هو، خبؤا الصّحن الذي فيه السمكات ذات الحجم الكبير في زاوية بعيدة في الغرفة، وأبقوا السّمكات الصغيرة، فلاحظ جحا ما تمّ. فلما دعوه إلى الجلوس معهم على السّفرة استجاب، فأخذ إحدى السّمكات، وقرّبها من أذنه، كأنه يستمع إليها «توشوشه»، وتهمس في أذنه، فسأله من حوله عن عمله هذا. فقال: إن والده كان قد غرق في البحر

(١) تبيّن أنها وردت في «أيْ بُنَيّ»، في الجزء الثاني منه، صفحة ١٣٧، الطبعة الأولى.

وأكله السمك، فهذه السمكة تخبرني أنها لم تأكل من لحمه، وأن التي أكلت هناك، في ذلك الرّكن، فضحك أصحاب البيت، وأدركوا ألّا مناص من احضار السمكات الكبيرات.

وقد أكون قصصتها عليك من قبل، وقد تكون هذه مناسبَة، وتلك أخرى، ولكنّي متأكّد أنّك لا تأنف من سماعها عدة مرات ما دامت قصّة، وعن جحا وأشعب.

وما دمنا نتحدّث عن الأكل، وانتهينا، فلنقل: «الحمد لله ربّ العالمين».